مراجعات في الكتب

رحلة إبن بطوطة، تحقيق د. عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧.

كان إبن بطوطة حريصا على تدوين كل الأحداث واللقاءات والعادات والتقاليد التي لفتت انتباهه، وسجّلها بدقّة لأنّه أتقن مهمته بشكل مميّز، حيث تصاهر مع بعض من عايشهم خلال رحلته، وعرفهم عن قرب، بل وأصبح واحداً منهم، ورحلته لا تخلو من صعوبات نظرا لقلة وسائل النقل آنذاك، فهو أحيانا يركب السفينة وأحيانا أخرى يمشي على الأقدام ومرات على ظهور البغال والخيول.

رحلة إبن بطوطة المسمّاة: **تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** للمؤلف شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللّواتي التنجي، صدر أخيرا تحقيق جديد عن "أكاديمية المملكة المغربية"، سلسلة "التراث"، قدم لها وحقّقها ووضع حواشيها وخرائطها وفهارسها الدكتور عبد الهادي التازي عضو الأكاديمية، المعروف بأبحاثه المختلفة حول المغرب وتاريخه وعلاقاته بالعالم العربي الإسلامي. وقد عمل عليها سنوات، راجع خلالها أكثر من ثلاثين مخطوطة في المغرب وباريس ومدريد والقاهرة، إضافة ألى الطبعة المتداولة، ووقف على ثغرات كثيرة سواء بالنسبة للأغلاط المتكررة في طبعة دون أخرى، أو حذف الشعر من بعض الطبعات. فكل الطبعات الموجودة للرحلة ما هي إلا إعادة وتكرار لطبعة باريس التي حقّقها الأستاذان: ديفريمري (Defermery) وسانكينيتي (Sanguinitti) في منتصف القرن الماضي، ويقول المحقق في ذلك:

"غير أنه إذا كان البحث قد أدّى بنا إلى أنّه ليست هناك زيادات كثيرة على "تلخيص" ابن جزّي لتقييد إبن بطوطة، فقد اكتشفنا إضافات فرضت علينا أن نقف أمامها معقبين أو مصلّحين أو مستدركين، وحملتنا على الاقتناع حقا بأن نشر الرحلةمن قبل الأستاذين ديفرميري وسانكينيتي في منتصف القرن الماضي معتمدين على المخطوطات الثلاث [يقصد المخطوطات الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس (الملكية سابقا)]، أصبح متجاوزا فعلا، سيما مع ما عثرنا عليه من تعريف لبعض الكلمات أو نقص في بعض الألفاظ مما سيقع التنبيه عليه في مكانه بحول الله بعد أن توفّرنا علىنحو من ثلاثين مخطوطة" (ص١٠).

ويأتي المحقق على ذكر كل الطبعات العربية التي زعم أصحابها انهم بذلوا جهدا في إعادة تحقيقها وتقديمها إلى القارئ مبيّنا التجاوزات والنقائص والزيادات والخلط بين صاحب المخطوطة إبن بطوطة وبين ناسخا إبن جزّي، كما يقيّم كل الأعمال التي تناولتها من طرف المستشرقين موضّحا هفواتهم، وجهدهم في آن معا.

فإن كانت رحلة ماركو بولو قد أخذت حقها من العناية والدراسة والتنقيب، فإن رحلة إبن بطوطة بقيت سجينة النقل وإعادة النقل، رغم أنها أكبر وأشمل وأعمق من رحلة ماركو بولو، فهذا الأخير اعتمد على الخرائط و لم يسافر ويتجول مثل إبن بطوطة الذي بقي متنقلا في العالم لمدة ٢٩ سنة. وقد ترجمت رحلته إلى لغات مختلفة، لأن الرحالة زار بلدانا ومناطق كثيرة وهو الشيء الذي دف الباحثين إلى الاهتمام بها كمرجع جغرافي وتاريخي وسياسي الخ.

ولد إبن بطوطة بطنجة بالمغرب سنة ١٣٠٤ وتوفى سنة ١٣٧٨م، في أسرة علم وقضاء، واشتهر برحلته التي ارتبطت به ارتباطا كليا، فلكثرة تعوده على الترحال كان يتأقلم بسرعة فائقة مع سكان البلدان التي يزورها ويتعلم لغة أهلها: "وحتى إذا لم يحسن الكلام باللسان فإن آذانه تتنظر ما يصلها من جمل وكلمات، ومن هنا وجدناه يردد بعض الكلمات التي تطرُق سمعه بالفارسية والتركية" (ص٨٨، الجزء الأول).

وهناك شخصيتان ترتبطان بهذه الرحلة:

الأولى السلطان أبو عنان الذي وُلد سنة ١٣٥١، هو إبن السلطان أبي الحسن بن السلطان أبي عبد الله بن السلطان يعقوب بن عبد الحق مؤسس دولة بني مرين، وكان معروفا بمجالسه الأدبية وعلاقاته السياسية والدبلوماسية المتشعبة مع سلاطين وحكام الدول الأخرى، وهو الذي أصدر أمرا بنسخ رحلة إبن بطوطة وجعلها في متناول القراء.

أما الشخصية الثانية فهي إبن جزّي، الذي كان سبب ظهور الرحلة على الساحة، وهو أبو عبد الله بن ابي القاسم محمد بن أحمد بن جزّي المولود سنة ١٣٢١/٧٢١م. وكان كاتبا لمجلس أبي عنان، ويمتاز بخطه البديع، وهو الذي أنجز الرحلة بأمر أبي عنان، والرحلة كانت من تشجيع السلطان أبي عنان لإبن بطوطة، الذي وفر له كل ما يحتاجه لكي يترك هذا العمل الخالد الذي يعتبر من أمهات الكتب، ويعتمد كمرجع في الكثير من الجامعات والمؤسسات العربية والغربية وغيرها. وبهذه الرحلة وثّق ارتباط شطري العالم العربي الإسلامي مغربا ومشرقا. بل يذهب المحقق إلى أبعد من ذلك معتبرا إبن بطوطة، بالإضافة إلى كونه عالما وشجاعا وأحد الذي أسسوا لدراسة تاريخ العلاقات الدولية، مبشرا أيضا لانه زار بلدانا كثيرة لم يكن أهلها مسلمين، وبحكم اختلاطه بهم ومصاهرتهم إياه، تعرفت هذه الأقوام على الإسلام واعتنقته، بل ربط مناطق نائية غير معروفة بمناطق أخرى معروفة، ووفّر للباحثين فيما بعد عناء البحث والترحال.

أما عن الدافع لإعادة قراءة وتحقيق الرحلة، فيقول الدكتور عبد الهادي التازي ما يلي:

"وقد كان من حوافز نشر الرحلة كذلك رغبة ملحة في الاستجابة لأمنية غالية شعرت باهميتها عندما انتسبت للمؤتمر العالمي للأسماء الجغرافية. تلك هي ضبط المواقع الجغرافية التي ورد ذكرها في الرحلة إلى القارات الثلاث (ويقصد بالقارات الثلاث: أفريقيا وآسيا وأوروبا) وهي ثروة هائلة كان علينا أن نحافظ عليها كما أدّاها لنا إبن بطوطة" (ص١٠).

وتحتوي المخطوطة على ثمانية عشر فصلا (أو رحلة) وبالإضافة إلى توضيح المحقق للأعلام والأماكن الجغرافية، وضع في بداية كل فصل من الفصول الثمانية عشر التي وزعت الرحلة عليها خريطة جغرافية ترسم معالم الطريق المسلوك، ممّا يبين للقارئ متابعة خطوات إبن بطوطة، كما أضاف إليها صورا تُشعرنا أنّا نعيش في جوّه.

فبهذا العمل أصبحت الرحلة موسوعة قسّمها المحقق إلى خمسة مجلّدات، تغطي الرحلة المجلدات الأربعة الأولى، وخُصص المجلد الخامس للفهارس. وقد أُثبت فيه أربعة وثلاثين فهرسا تناولت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأمثالا وحكما وأشعارا، وأعلاما بشرية وجغرافية، وقبائل وسلالات، ومراكب وأدوات وأسلحة وأمراضا وأوبئة، وملابس وأطعمة، وجواهر وبخورا، وعادات وتقاليد، وكتبا وعلوما، وأسواقا، وقلاعا، وحصونا، وزوايا ورباطات، وكنائس واديرة وممالك... الخ.

أي أنه ضبط أكثر من الف علم جغرافي ذكرها إبن بطوطة في رحلته، إضافة إلى الحواشي التي تكاد تكون أكثر من النص نفسه، والملحقات التي معظمها صور بمناظر تخص الموضوع مما يزيد القارئ تفحصا في الرحلة.

فلقد وقف المحقق عند كل ما لم يكن واضحا أو عسر فهمه وراح يبحث وينقب عن معناه أو معانيه في أمهات الكتب العربية بمختلف اختصاصاتها، كما اعتمد على مراسلات مع أساتذة متخصصين في ميادين متفرقة في بلدان وعواصم مختلفة، وهكذا أصبح الكتاب موسوعة شاملة يعتمدها الباحثون في مختلف الميادين. يحتوي المجلد الأول على المقدمة والتعاليق وشرح الطريقة التي اعتمدها المحقق للقيام بهذا العمل الضخم، ويقع في ٤٣١ صفحة ويضم الرحلات والفصول التالية:

الفصل الأول: المغرب الكبير وفيه تقديم لابن جزّي وشرح منهاجه في تحرير الرحلة، ثم خروج إبن بطوطة من طنجة ووصوله إلى تلمسان ثم مرضه ببجاية (الجزائر) وحلوله بتونس وأخذه الطريق إلى طرابلس.

أما الفصل الثاني فيحتوي على مصر، حيث زار مدينة الإسكندرية ثم توجه إلى المحلة الكبرى شرقا، ومنها إلى القاهرة، ثم إلى حدود البحر الأحمر جنوبا، والعودة إلى سلوك درب الشام.

الفصل الثالث بعنوان: الشام وفلسطين، وتنقله من غزة إلى القدس، ثم عسقلان، ثم حلب وبعدها جبلةن ثم اللاذقية ودمشق وضواحيها.

الفصل الرابع: الحجاز، حيث انتقل من مدينة دمشق إلى مدينة الرسول (ص)، فالمدينة والحرم الشريف، ثم مكة المكرمة وتعرف على أعيانها وضواحيها.

الفصل الخامس، العراق وفارس (عراق العرب وعراق العجم) كما يقول، حيث وصل إلى النجف الاشرف وتوجه منه إلى البصرة، ثم اصفهان ثم خرج إلى شيراز وسافر إلى بغداد ثم تبريز عاصمة سلطنة عراق العرب والعجم.

المجلد الثاني ويقع في ٢٦٨ صفحة، ويحتوي على الفصول والرحلات التالية:

الفصل السادس: بين المحيط الهندي والخليج الفارسي، وهنا نراه يغادر جدّة متجها إلى اليمن ثم إلى جزيرة سواكن، ومنها إلى مدينة حَلي وبعدها زبيد عاصمة الجمال والكمال (كما يقول)، ثم يكلمنا عن التقاليد بين الهند واليمن، ويسهب في الحديث عن صهاريج عدن التاريخية. وبعد ذلك ينتقل إلى زَيلع ومَقْدَشَوْ - جزيرة مَنْبسَي - كُلْلوا فحضرموت، وشبّه سكان هذه المنطقة بصنهاجة المغاربة، ثم ينتقل إلى عُمان الكبرى، بين قلهات وهرمز، وبعد ذلك يتكلم عن مغاصات اللؤلؤ وبلاد البحرين، ثم ينتقل إلى القطيف، ويؤدّي مناسك الحج عام ٧٣٢ هجرية.

الفصل السابع: آسيا الصغرى. ونراه ينتقل من جدة إلى عيْدات - مصر - الشام ثم اللاذقية إلى (الأناضول) - جماعة الفتيان الأخية، ومن قونية إلى قيسارة - أرَزَنجان الأرمن، ومنها إلى بركي، حيث اجتمع بطبيب يهودي بمجلس السلطان!، ثم يتكلم عن البطل عُمر أمير يزمير، وبعد ذلك ينتقل إلى يُرضى ويتحدث عن سلطانها أرخان بك بن عثمان الذي يُنسب إليه العثمانيون، ثم يُولي حيث رأى الموقد لأوّل مرة! وعن اجتماعه في يزنيك بالسلطان أرخان وزوجته ببلون خاتون، ونراه بعد ذلك ينتقل من قصطمونية إلى شبه جزيرة صنوب على البحر الأسود.

الفصل الثامن: الفَفجق بلاد السلطان محمد أوزبك خان، حيث يصل إلى الكِرش من صُنوب عبر البحر الأسود، ويزور القِرَم ومنها إلى محلة محمد أوزبك أحد الملوك السبعة لعالم إبن بطوطة، فيتكلم عن خصوصية الأميرة طَيْطُغلي! فأرض الشمال وبلاد الظلمة كما يقول، ثم ينقل إلينا مشاهداته فيما يخص مراسم الأوزبك في العيد. وينتقل من مدينة الحاج ترخان إلى القسطنطينية صحبة الأميرة، ويعود بعد ذلك إلى حضرة السلطان عبْرايل (فولكا) في مناخ قارس.

أما المجلد الثالث فيقع في ٢٥٥ صفحة، ويحتوي على الفصول (الرحلات) التالية:

الفصل التاسع: آسيا الوسطى، التي يبدأ فيها بزيارة خوارزم عبر سَراجوف، ويحدثنا عن أخبار علاء الدين طَرْمسون سلطان تركستان وما وراء النهر، ثم ينتقل إلى مدينة سمرقند، ويصف بإسهاب مسجد وجامع رباط الفتح! ثم مدينة هُرات وسلطانها والحديث عن السنة والشيعة، ومغادرته فيما بعد خراسان متجها إلى بلاد الهند.

الفصل العاشر: الطريق إلى دهلي، ووصوله غلى بنج آب، ثم انتقاله منها إلى سيوستان، ووصفه لمدينتها وانتقاله بعد ذلك إلى مُلتان ثم مواصلة طريقه إلى أبوهر، ويتحدث عن الزراعة في الهند ويخصص لها مساحة كبيرة، ثم ينتقل إلى أجودهن ومنها يعود إلى دهلي.

الفصل الحادي عشر: فتح دهلي ومن تداولها من الملوك. وفي هذا الفصل نراه وكأنه باحث اثرى أو أنتربولوجي، فبعد أن يصف دهلي ويتكلم عن تاريخها ومعالمها، يتحدث عن أولياء الله الصالحين، ثم يتكلم عن السلطان شمس الدين لليمس (Lletmish) وأبنائه، وعن السلطانة رضية بنت شمس الدين، ثم السلطان حسروخان ناصر الدين وعن السلطان غياث الدين تُغلق. يعطينا نظرة تاريخية عن هذه الشخصيات التي لعبت دورا هاما في دَهلي، والتي يتكلم فيها عن نسبها وأصولها وتربعها على العرش، وعن خدماتها الجليلة للإسلام والعلم.

الفصل الثاني عشر: السلطان محمد ابن تغلق. يواصل إبن بطوطة نفس الإهتمام بالشخصيات البارزة، التي كان لها دورها في إدارة السلطة السياسية والإجتماعية والدينية، حيث يتكلم عن مشوار السلطان وعاداته وكرمه وجوده، ثم قدوم الخليفة على السلطان، وبعد ذلك زواج أخت السلطان وينتسي وزيره، وفي هذه الزيارة ترك إبن بطوطة ولدا اسمه أحمد عند الأمير غياث الدين ولكن لا يعرف مصير هذا الولد!

الفصل الثالث عشر: تاريخ مملكة ابن تغلق. يواصل الحديث عن كرم ومعاملة الملوك والسلاطين، حيث استضافه السلطان محمد شاه والدته، ويتحدث عن إحسان السلطان له وعن عطاءاته وخروجه مع السلطان إلى الصيد، وتكرم السلطان بالهدايا لإبن بطوطة، ثم خروج هذا الأخير إلى هزَار، إلى الصين.

المجلد الرابع ويقع في ٣٥١ صفحة ويحتوي على الفصول والرحلات التالية:

الفصل الخامس عشر: آسيا – الجنوب الشرقي – والصين. يحل ببلاد البَرَهْنكار ثم بلاد الصين، ويعود إلى بلاد طوالسي وحديثه عن الرخ، وحضوره عرس ولد الملك الظاهر.

الفصل السادس عشر: العودة إلى المغرب. ينتقل من جاوة إلى قالقوط ثم يأخذ الطريق إلى ظفار في محرم (يناير) سنة ١٣٤٧ باتجاه البصرة ثم دمشق ثم القاهرة، ومنها ذهب إلى الحجاز

لأداء الحجة السادسة، ثم عاد إلى مصر ثم تونس، وبعدها إلى تازة (بالمغرب) ثم فاس والمثول بين يدي السلطان أبي عنان، الذي خصص له إبن بطوطة فصلا ذكر فيه بعض مآثره ومناقبه.

الفصل السابع عشر: الرحلة إلى الأندلس. يتحدث عن جبل الفتح وعن اهتمام الدولة به، وعن المعمار في هذا الجبل، وعن حضوره للقاء شعري في الجبل، ثم الحديث عن زندة، ومريلة، وحلوله بمالقه ثم حديثه عن غرناطة ومجالسها الأدبية والفكرية، ويسهب في الحديث عن العجم المستوطنين بالمدينة واهمال آثار الحمراء! ثم عودته إلى المغرب ومقامه بمدينة مراكش. ويصف بعد ذلك مصاحبته لركب أبي عنان الذي حمل شِلْو والده من مراكش لدفنه في شاله بالرباط.

الفصل الثامن عشر: الرحلة إلى بلاد السودان. حيث يتجه نحو مدينة سجلماسة ويصفها وصفا جميلا متحدثا عن أهلها وما فيها، كما يتحدث عن أصحاب التكشيف في مسوقه وشياطين الصحراء! ثم توجهه إلى تغازي مدينة الملح، فوصوله إلى أيوالاتن. أول عمالة السودان، والحديث عن مركز ومكانة المرأة في أيوالاتين، ثم مواصلة رحلته نحو مالي حاضرة بلاد السودان، ويتحدث كما في الفصول السابقة عن عادات وتقاليد البلد، فيتكلم عن ملك مالي الذي أقام مجلس عزاء للسلطان أبي الحسن. ثم عن وادي النيجر الذي اعتقد أنه لا صلة له بالنيل! وبعد ذلك يخصص فصلا يتحدث فيه عن أكلة لحوم البشر! وحديثه عن حج السلطان موسى. واستلامه رسالة يأمره فيها السلطان أبو عيان بالعودة إلى المغرب، ثم اجتماعه بالسلطان الذي أصدر أمرا بانتساخ الرحلة.

وينهي المحقق المجلد الرابع بفصل بعنوان: ملاحق، حيث يأتي بشهادة إبن خلدون حول الرحلة، وتعقيب الزياني عنها، وادراج وثيقة تأسيس مسجد مالديف، وتعليق وكالة المغرب العربي للأنباء، ثم الحديث عن أكاديمية السلطان أبي عثمان، ورسالة الروضة الشريفة، ثم إدراج نص وقفية المدرسة البوغانية بداخل فارس، وشهادة حول الحديث عن الزاوية المتوكلية خارج فاس، وعن تهنئة ملك غرناطة للملك المغربي بتحرير طرابلس، ثم إدراج معلومات عن

الرحلة من خلال المراسلات التي استلمها الدكتور التازي من المهتمين بابن بطوطة، رسائل شكر وثناء وردود على رسائل المحقق بلغات مختلفة، الشيء الذي يبين المجهود المتظافر الذي قام به حتى يحل بعض ألغاز الأسماء والأماكن الواردة في الرحلة، كذلك الأشخاص والأمراض...الخ. وأخذه بالنصائح والتوجيهات التي أدلى بها هؤلاء الاساتذة والمتخصصون كل في ميدانه العلمي والفكري.

أما المجلد الخامس فيقع في ٢٨٦ صفحة، تحتوي على أربعة وثلاثين فهرسا، إتبع في كل فهرس ترتيبا أبجديا مع إحالة القارئ إلى رقم الصفحة مع المجلد المذكور فيه.

مثلا، في فهرس الأمراض، نجد داء الفيل، انتفاخ القدمين فهو تحت حرف (الدال) في الجزء الثاني ص ١٩٩، أو العاهات، فهي مذكورة في المجلد الأول ص ٣٥١، ونفس الشيء بالنسبة لفهرس الكتب الواردة ذكرها في المتن، مثلا الشفاء للقاضي عياض، تحت حرف (ش) ويوجد في المجلد الأول ص ٢٤٨، وهكذا فعل في بقية الفهارس.

ولا يسعنا إلا أن نهيب بالدكتور التازي لما قام به من خدمة جليلة للعلم بتحقيقه لهذا العمل الضخم. الذي سيدفع الكثير من الدارسين إلى إعادة النظر فيما قرأوه في الطبعات السابقة. والرحلة بحد ذاتها، بالاضافة إلى كل محاسنها ومكانتها الهامة، فهي تمثل جسرا متينا يجسد الحوار بين الحضارات في دول المعمورة سواء في القارة الأوروبية أو الآسيوية أو الإفريقية. (ص٧٧ الجزء الأول).

الطيب ولد العروسي